مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

ملامح المنهج البلاغي في تفسير مكي بن أبي طالب

أ. حسن الطوير

حياته وآثاره:

يعد مكي بن أبي طالب[1] مغربي المولد أندلسي المنزل، ولد بالقيروان وتعلم بها، وسمع من أبي زيد القيرواني، ويرجع في نسبته إلى قبائل قيس عيلان التي جاءت مع الفتح الإسلامي.

ولما بلغ سن الرحلة سافر إلى مصر وتعلم على مشائخها، ثم عاد إلى بلاده، ويسر له أداء فريضة الحج مرتين حيث التقى بعلماء الحرمين وأفاد منهم،

(1) هو مكي حموش بن محمد بن مختار القيسي أبو محمد عالم في التفسير وعلوم القرآن والعربية ولد بالقيروان ثم سافر إلى مصر وقصد الأندلس ونزل قرطبة وجلس للإقراء بمسجدها فانتفع به خلق كثير توفي عام 437هـ. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان 5/ 279، بغية الوعاة 2/ 298، شجرة النور الزكية ص107.

ثم دخل الأندلس عام 393هـ وبدأ حياته العلمية المكثفة التي جمع فيها بين التدريس والتصنيف، فبالإضافة إلى التدريس بجامع قرطبة الذي صار إمامه فيما بعد، عكف على التأليف، فصنف أغلب كتبه هناك، وطاب له المقام بالأندلس فقضى فيها أكثر من أربعين سنة حتى وفاته سنة 437هـ.

فأبرز ما يميز حياة مكي رحلاته لطلب العلم التي طوف فيها بلاد المشرق الإسلامي، فلقي الشيوخ والأعلام وأخذ عنهم لمدّة تربو عن ربع قرن.

ومن الباحثين من ينسب مكي بن أبي طالب لمدرسة التفسير بالأندلس من مثل مصطفى المشيني[2]، بل هو ينتسب إلى المدرسة القيروانية، ومهما يكن من أمر فإن مكي بن أبي طالب مثّل العلاقة المتينة بين شرق الغرب الإسلامي وغربه، وبين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي من جهة أخرى، ويصح للمغاربة أن ينسبوه إليهم دون قصره على مدينة بعينها.

وكان مكي مهتماً بعلم التفسير فأجاد التصنيف فيه، قال عنه ابن حزم الأندلسي ت456هـ «أما القرآن فمن أجل التفاسير ما صنف من تفسيره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في نحو عشرة أسفار صنفه الإمام الزاهد العالم أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي»[3].

واسم تفسيره فيما نص عليه المؤلف في مقدمته «كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معنى القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه»[4].

واستدرك على قوله بلوغ النهاية فقال «أعني بقولي بلوغ النهاية إلى ما وصل إليّ من ذلك؛ لأن علم كتاب الله لا يقدر أن يبلغ أحد إلى نهايته، وفوق كل ذي علم عليم»[5].

وأصل الكتاب يقع في سبعين جزءاً كما ورد في كشف الظنون[6] وهو

---

(2) انظر مدرسة التفسر في الأندلس. ص86 وما بعدها.

(3) نفخ الطيب 3/ 179.

(4) كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية خ 10739 ـ المكتبة الوطنية ـ تونس ـ ص3.

(5) المصدر نفسه ص3.

(6) كشف الظنون 2/ 2041.

مفرق في عدة مكتبات، وقد حدَّدتُ أماكن النسخ وأرقامها من الهامش لمزيد المعرفة والاطلاع[7].

ويتضح من خلال حجم المجلد الأول المبالغة التي وقع فيها صاحب كشف الظنون، ويبدو أن تفسير مكي من الحجم المتوسط.

ومنهج مكي في تفسيره أنه بدأه بذكر أسباب النزول، ثم يقف على الكلمات التي تحتاج إلى شرح فيبدأ بإعرابها وذكر معناها على اختلاف الأوجه ثم عزو الآراء لأصحابها، وقد بيّن في المقدمة طريقة تأليفه والمبادئ التي انتهجها حيث استقصى فيه ما ثبت عنده من الأقوال المأثورة عن النبي ﷺ إما بروايته عن شيوخه، أو ما صح عنده من مرويات غيره، وأتبع ذلك باختيار ما وصل إليه من الأقوال التي اشتهرت عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى عصره، ويبرز إعراضه عن ذكر الأسانيد لغرض الإيجاز فيقول «وأضرب عن الأسانيد ليخف حفظه على من أراد التفرغ إلى جمع ما فيه من علوم كثيرة وفوائد عظيمة من تفسير المأثور، ثم بيّن اهتمامه بالأحكام والقراءات والإعراب بقوله: «وذكر الأحكام والناسخ والمنسوخ من قراءة عربية أو إعراب غامض أو اشتقاق مشكل أو تصريف خفي أو تعليل نادر أو تصريف مسموع مع ما يتعلق بذلك من أنواع علوم يكثر تعدادها ويطول ذكرها»[8].

كما صرح في مقدمته بأنه خفف من ذكر النحو والغامض من الإعراب من تفسيره؛ لأنه أفرد لهذا العنصر مصنفاً خاصاً هو كتابه «مشكل إعراب القرآن»،

---

(7) **المجلد الأول**: نسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم (ق814) تبدأ بالفاتحة إلى سورة الأنعام عدد صفحاتها 374.

ـ نسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم (ق217) تبدأ بمقدمة الكتاب وتنتهي بأول سورة الأعراف عدد صفحاتها 446.

ـ نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم (10739) من المقدمة إلى آخر سورة النساء.

المجلد الثاني: نسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم (ق58) تبدأ بسورة يونس وتنتهي بآخر الكهف.

المجلد الرابع: نسخة في الخزانة العامة بالرباط رقم (ق218) تبدأ من سورة غافر وتنتهي بآخر سورة الناس وعدد صفحاتها 338 صفحة.

نسخة أخرى في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (2215) ميكرو فيلم.

(8) كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية خ 10739 ـ ص2.

ويعلل ذلك بقوله: «بغية التفرغ لما ألف كتاب الهداية من أجله، وهو تفسير التلاوة وبيان القصص والأخبار، وكشف مشكل المعاني وذكر الاختلاف في ذلك، وبيان الناسخ والمنسوخ، وذكر الأسباب التي نزل فيها»[9]. وإن الباحث ليلاحظ مدى أهمية التفسير حينما يطلع على كتب التفسير بالغرب الإسلامي فيجد أنها تعتمده مصدراً أساسياً من مصادرها، ولعل ذلك يبدو واضحاً في المحرر الوجيز حيث أكثر ابن عطية النقل عن مكي مسلّماً تارة ورادّاً ومنتقداً تارة أخرى، زيادة على ذلك فهو يؤصل مدرسة التفسير بالمأثور من مستهل القرن الخامس كما أصلها يحيى بن سلام من قبل في نهاية القرن الثاني.

ولقد كان تفسير الطبري من مصادر مكي، فأفاد منه في ترسيخ المنهج الأثري في الغرب الإسلامي.

ولم يقتصر مكي على تفسيره هذا، بل كتب في علوم القرآن تصانيف كثيرة، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له أنه خلف ثمانين مصنفاً في التفسير والقراءات[10] ولكن المفقود منها أكثر من الموجود.

فله في وجوه القراءات مصنفات متعددة منها كتاب «التبصرة» و«الموجز» و«كتاب الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها»، وفي فن التجويد وأداء القراءات ألف كتاب «الرعاية لتجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة» قال في مقدمته: «وما علمت أن أحداً من المتقدمين سبقني إلى تأليف هذا الكتاب»[11]، كما كان عالماً بالرواية وأسباب النزول، وصنف في هذا المجال كتابين[12]، وكان لغوياً عالماً بغريب القرآن، وألف في ذلك كتابه «العمدة في غريب القرآن»[13]، وكان على علم واسع بإعراب القرآن، فصنف فيه كتابين هما «الزاهي في اللمع الدالة على مشتملات الإعراب»، و«مشكل إعراب القرآن»[14]. وكان لتمكنه في اللغة

---

(9) نفسه ص2.

(10) نفح الطيب 3/ 179.

(11) طبع هذا الكتاب بدار الكتب العربية ـ دمشق ـ 1973 ـ تحقيق أحمد حسن فرحات.

(12) هما «الإيضاح في الناسخ والمنسوخ» «اختصار أحكام القرآن».

(13) طبع بمؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1981 ـ تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

(14) طبع بإشراف مجمع اللغة العربية بدمشق ـ دار المأمون ـ تحقيق ياسين محمد السواس.

والنحو والأدب والفقه والرواية يتناول القراءات من جانبين: ـ جانب الرواية مثل ما فعل في كتاب «التبصرة» وهو فيما اختلف فيه القراء السبعة المشهورون[15].

جانب الدراية ويمثل هذا الوجه كتابه «الكشف عن وجوه القراءات»، وقد بين فيه علل وحجج القراءات التي ذكرها في كتاب التبصرة، يقول: ـ «كنت قد ألفت بالمشرق كتاباً مختصراً في القراءات سميته كتاب التبصرة، وأضربت فيه عن الحجج والعلل ومقاييس النحو في القراءات واللغات...، ووعدت في صدره أني سأؤلف كتاباً في علل القراءات التي ذكرتها في كتاب التبصرة»[16] ثم وضع موازنة بين المصنفين فقال: ـ «فهذا الكتاب كتاب فهم وعلم ودراية، والكتاب الأول كتاب نقل ورواية»[17].

وقد أبدى مكي اهتماماً ملحوظاً بإعجاز القرآن حيث صنف في هذا العلم كتابين: ـ أولهما «بيان إعجاز القرآن»، والآخر هو «انتخاب الجرجاني في نظم القرآن وإصلاح غلطه»[18].

وعلى الرغم من أن مكياً قد ألف في إعجاز القرآن مصنفات مستقلة، فإنه في تفسيره لم يتعرض للحديث عن الإعجاز، كما أن الأسرار البيانية والنكات البلاغية لم تكن كثيرة بهذا التفسير، ومرجع ذلك أنه خصها بمصنفات مستقلة، فلم يكن يرغب التكرار، كما أن فن البلاغة لم ينضج في عصره.

ويلاحظ على مكي أنه يلجأ للتأويلات اللغوية في المفردات والتراكيب مما يمهد السبيل أمامه لكشف الأسرار البلاغية، فقد انصب اهتمامه على بعض المباحث اللغوية كشرح معاني الحروف وإعرابها وبيان عملها، وبعض مشكلات إعراب القرآن التي استعان على حلها بأشعار العرب وأمثالهم.

كما يلاحظ عليه أنه يحترم مصادره اللغوية، ولكنه لا يقبلها مسلّماً بما فيها بل ناقداً ورادّاً إن خالفت القواعد اللغوية والسياق القرآني، وهذا ما أشار

---

(15) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت. ط4 ـ 1987 ـ 1/ 3.

(16) نفسه 1/ 3.

(17) نفسه 1/ 6.

(18) إنباه الرواة 3/ 316.

إليه أحمد حسن فرحات في دراسته الهامة حول تفسير مكي حيث يقول: «يلاحظ استخدامه النقد في مجال اللغة حيث يرد كثيراً من الآراء أو يضعفها بناء على مخالفتها لقواعد اللغة وأصولها وتصاريفها، ويرجح منها ما يكون أقوى وأقرب إلى روح اللغة وأصولها ثم هو في كل ذلك يذكر هذه القواعد والأصول وينبه عليها مما يجعل كتابه حافلاً بالتعليقات اللغوية المفيدة»[19] ومجمل القول إن تفسير مكي تفسير أثري لغوي أكسبه جمع مصنفه بين التدريس والتأليف نظراً ناقداً للمنقول من مأثورات ولغويات.

وعلى الرغم من ندرة الأسرار البلاغية في تفسير مكي كما ذكرت سالفاً، فإني سأحاول في هذا البحث التنبيه على بعض التخريجات البلاغية التي أوردها في تفسيره أو في غيره من مصنفاته لنحدد بذلك ملامح منهجه البلاغي.

معاني الحروف:

يبدى مكي اهتماماً واضحاً بالحروف وشرحها، وهو من العلماء الذين يرون أن حروف المعاني ينوب بعضها عن بعض، من ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [سورة البقرة، الآية: 7].

يقول «تقع على بمعنى الباء تقول اركب على اسم الله أي بسم الله، وتقع بمعنى مع نحو قولك جئت على زيد أي معه، وتقع بمعنى من نحو قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [سورة المطففين، الآية: 2][20].

ويرى مكي استواء ذكر الحرف أو حذفه في بعض المواضع كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ﴾ [سورة الزمر، الآية: 75].

قال «العرب تثبت الباء مع التسبيح وتحذفها تقول: سبح بحمد ربك

---

(19) مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن ـ أحمد حسن فرحات ـ دار الفرقان ـ عمّان ـ الأردن ط أولى ـ 1983م ص2.

(20) تفسير الهداية في الرباط رقم (ق217) ص17.

وسبح حمد ربك ومنه قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة، الآية: 74] وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى، الآية: 1][21].

ثم ينقل عن الفراء قوله «سبح اسم ربك وسبح باسم ربك كل صواب»[22] وإذا كانت العرب يستوي عندها الذكر والحذف، فإن دقة المعنى القرآني تفرق بين ذكر الباء وحذفها.

وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 14] يقول: «إلى بمعنى مع كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: 2] أي مع أموالكم، وقيل: إلى على بابها والعرب تقول: «خلوت به وخلوت إليه ومعه لكن الباء تدل على أن معنى خلوت من السخرية وإلى لا تدل إلا على خلوت إليه في أمر ما، والآية ليست على معنى السخرية فلذلك لم تأت بالباء لما فيها من إشكال[23].

بينما يرى ابن عطية أن خلوا نزل في هذا الموضع منزلة ذهبوا إذ هو معادل لقوله لقوا ولهذا وصلت بإلى وعُرْفُها أن توصل بالباء[24].

فالتعدي بإلى فيه دلالة على الاستئناس والالتجاء إلى المختلى بهم لا يوجد في الباء. ولا يكون الفعل خلوا معادلاً للقوا كما ادعى ابن عطية؛ لأن معنى الاختلاء أبلغ لما فيه من الانفراد والتحصن مما لا يدل عليه الفعل لقوا.

ولا يمكن التسليم للقول بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض؛ لأن ذلك يجر إلى القول بترادف معانيها وهو مخل بتمام بلاغة القرآن.

وقد أدرك ابن عرفة الفرق بين معنى الفعل لقوا المسند إلى المنافقين في حال مقابلتهم للمؤمنين، ومعنى الفعل خلوا المسند إلى المنافقين في حال اجتماعهم مع رؤسائهم فقال: «وإنما قال» «وإذا لقوا» ولم يقل وإذا أتوا إشارة

---

(21) تفسير الهداية خ رقم (ق218) ص294.

(22) معاني القرآن ـ يحيى بن زياد الفراء ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط3 ـ 1403/ 1983. 3/ 256.

(23) الإشكال في الباء أنها تحتمل معنى إلى وتحتمل معنى السخرية ـ تفسير الهداية خ10739 ـ 1/ 15 و.

(24) المحرر الوجيز 1/ 123.

إلى أن لقاءهم للمؤمنين إنما يكون فجأة غير مقصود»[25].

وكعادة المفسرين المغاربة الذين يبدون اهتماماً بالأحكام الفقهية ويربطونها باللغة أشار مكي إلى اختلاف الأحكام الفقهية تبعاً لاختلاف المعنى اللغوي للحرف كما في قوله تعالى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [سورة المائدة، الآية: 6] قال: «وأصل إلى في اللغة الانتهاء كقوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [سورة البقرة، الآية: 187] فالليل آخر الصوم غير داخل في الصوم، وكذلك المرفقان غير داخلين في الوضوء، ومن أدخل المرفقين في الغسل فإنما هو على أن يجعل إلى بمعنى مع كما قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: 2] أي مع أموالكم، وكما قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 52] أي مع الله.

هذا قول بعض أهل اللغة، ومنع ذلك المبرد وغيره من النحويين؛ لأن اليد عند العرب حدها إلى الكتف فلو كانت إلى بمعنى مع وجب غسل اليد كلها إلى الكتف لأنه آخرها، وإلى عنده على بابها»[26].

وقد أشار ابن جزي المفسر الفقيه إلى هذا الاختلاف في تفسيره[27].

النقل اللغوي:

ويتعرض مكي وهو يفسر آيات الكتاب العزيز للمفردات اللغوية، فيشرحها شرحاً وافياً مبرزاً آراء السلف في معناها فيرجح منها ما يكون أقرب إلى روح اللغة، ويرد كثيراً منها إذا عارضت أصلاً من أصولها، ولذا جاء تفسيره حافلاً بالتعليقات اللغوية التي تنمي ملكة النقد اللغوي عند الباحثين، ومن أمثلة ذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة يونس، الآية: 2] نقل مكي عن الضحاك معنى قدم صدق أي ثواب صدق، وقال مجاهد الأعمال الصالحات، وذهب ابن عباس إلى أن المعنى: أجراً حسناً

(25) تفسير ابن عرفة 1/ 342.

(26) تفسير الهداية خ(814) ص299، 300.

(27) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ص148.

بما قدموا من أعمالهم، وعنه ما تقدم لهم من السعادة في اللوح المحفوظ، وذهب بعضهم إلى أن قدم صدق هو محمد ﷺ شفيع لهم.

ثم فسر مكي معنى القدم في اللغة بتفسيرات متعددة منها: قدم الإنسان، والقدم السابقة والعمل الصالح، والقدم الشجاع والقدم المتقدم[28].

ثم استعان على تفسير القرآن بالسنة فقال: «وفي الحديث: **«إِنَّ جَهَنَّمَ لاَ تَسْكُنُ حَتَّى يَضَعَ الجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ»**[29].

ولا يقبل مكي بعضاً من آراء سابقيه بل يردها مخطئاً أصحابها كما في تفسير قوله تعالى ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [سورة يونس، الآية: 51].

نقل مكي عن الطبري قوله أثم بمعنى هنالك إذا ما وقع العذاب بكم آمنتم بالله، ثم عقب عليه بقوله: «وليست عنده ثم التي للعطف وهو غلط منه إنما تكون بمعنى هنالك إذا كانت مفتوحة الثاء بمنزلة قوله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: 20]، والتقدير عند غيره أنها ثم التي للعطف»[30] وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [سورة آل عمران، الآية: 130] يورد رأي النحاس ثم يرده فيقول «قال النحاس هو مصدر وهو غلط منه، هذا نهي من الله للمؤمنين أن يأكلوا الربا بعد إسلامهم، ومعنى أضعافاً أي تضعفون الدين إذا أخرتم الأجل، فقد كان الذي عليه الدين يقول: أخرني وأزيدك فيتضاعف عليه الدين»[31].

وقد زكى هذا الرأي من المفسرين المحدثين الطاهر بن عاشور حيث يقول: «ذلك أنهم كانوا إذا داينوا أحداً إلى أجل داينوه بزيادة، ومتى أعسر عند الأجل أو رام التأخير زاد مثل تلك الزيادة فيصير الضعف ضعفاً»[32].

---

(28) تفسير الهداية خ(ق58) ص2.

(29) صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ـ باب جهنم أعاذنا الله منها ـ 17/ 182.

(30) تفسير الهداية خ(ق58) ص17 ـ 18.

(31) تفسير الهداية ـ المكتبة الوطنية ـ تونس ـ 1/ 156ظ.

(32) التحرير والتنوير 4/ 85.

وقد يستعرض مكي عدداً من الأقوال في تفسير الآية، ثم يرجح ما هو أقوى في العربية كما في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 93] «قيل المعنى أنهم سقوا من الماء الذي ذرى فيه برادة العجل، وقال السدي: إنهم شربوا من الماء الذي ذرى فيه سحالة العجل بأمر موسى لهم، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب» فمكي يستأنس برأي السلف ثم يرد ذلك بقوله: «وأولى هذه الأقوال قول من قال أحبوا العجل؛ لأن الماء لا يقال أشربته بمعنى سقيته»[33].

وقد يعتمد على ملكته اللغوية في تفسير معنى المفردة دون الرجوع إلى رأي السابقين كما في تفسيره لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 106] قال: معنى تبيض تشرق كما قال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [سورة عبس، الآيتان: 38 ـ 39] فهي تشرق لما تصير إليه من النعيم، وتسود وجوه من أجل ما تصير إليه من العذاب»[34].

الإفراد والجمع:

ويتعرض مكي لمسألة التعبير في الجملة القرآنية بالمفرد تارة وبالجمع تارة أخرى، ويعلل ذلك في مواضع مختلفة من كتاب الله، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: 7] يقول: «إنما وحد السمع لأنه مصدر يقع على القليل والكثير، وقيل وحد لأنه يؤدى عن الجمع، وقيل التقدير: وعلى مواضع سمعهم ثم حذف المضاف، وإنما أعيدت على في قوله ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ لأجل مخالفة السمع للقلوب في أنه أتى بلفظ التوحيد وأتت القلوب بالجمع»[35].

وقد استأنس ابن عطية برأي مكي دون أن ينسبه إليه[36]، ويطرح القرطبي

---

(33) تفسير الهداية خ10739 ـ 1/ 42 و.

(34) نفسه 1/ 151ظ.

(35) تفسير الهداية خ(ق217) ص17.

(36) انظر المحرر الوجيز 1/ 108.

السؤال نفسه، ويجيب عنه مستشهداً بأشعار العرب[37]. ويستعين مكي بتعدد القراءات في مسألة الإفراد والجمع؛ لأن تعدد القراءات كتعدد الآيات، فيقول وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [سورة البقرة، الآية: 164][38] «وجه القراءة بالجمع إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدل على اختلاف هبوبها لأن الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى»[39].

وأيضاً فإني أرى أن هذه المواضع أكثرها لغير العذاب، فالريح بالتوحيد أكثر ما تقع في العذاب والعقوبات، والرياح بالجمع تأتي بالرحمة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ حينما رأى ريحاً تهب «**اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً**»[40].

ومن أمثلة تعدد القراءات بالجمع والإفراد قوله تعالى في الآية الثالثة بعد المائة من سورة التوبة ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

قال مكي «قرأ حفص وحمزة والكسائي بالتوحيد وحجتهم أن الصلاة بمعنى الدعاء والدعاء صنف واحد وهي مصدر والمصدر يقع للقليل والكثير، وحجة من جمع أنه قدر أن الدعاء تختلف أجناسه وأنواعه فجمع المصدر لذلك كما قال ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ [سورة لقمان، الآية: 19][41] ولا شك أن في التعبير بالمفرد مراعاة لمعنى والتعبير بالجمع فيه مراعاة لمعنى آخر لا يوجد في التعبير بالمفرد، وأحسب أن التعبير بالجمع روعي فيه تكرر مرات الصلاة والتعبير بالمفرد روعي فيه عموم الدعاء.

الاستفهام والتسوية:

وفي باب الإنشاء الطلبي[42] يبدى مكي اهتماماً واضحاً بالأغراض البلاغية

---

(37) انظر الجامع لأحكام القرآن 1/ 190.

(38) قرأ حمزة والكسائي بالتوحيد وقرأ الباقون بالجمع.

(39) الكشف عن وجوه القراءات 1/ 271.

(40) الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف - ابن حجر العسقلاني - مطبوع بذيل الكشاف - دار المعرفة - بيروت - ص129.

(41) الكشف عن وجوه القراءات 1/ 505.

(42) إن الإنشاء غير الطلبي لا يبحث عنه علماء البلاغة لأن أكثر صيغه في الأصل أخبار نقلت عن الإنشاء - جواهر البلاغة - أحمد الهاشمي - ص76.

للاستفهام عند خروجه عن معناه الحقيقي[43] منها عند تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: 106 ـ 107] قال «معناه أن النبي عليه السلام قد كان عالماً بذلك فضلاً من الله عليه، فخرج هذا الكلام مخرج التعبير على عادات العرب كقولهم: ألم أكرمك؟ ألم أتفضل عليك؟ تخبره بذلك وتنبهه عليه وهو عالم به، ومعناه قد علمت ذلك فكذلك هذا»[44].

أي إن الاستفهام للتقرير بإظهار المنة.

قال الطبري «حرف الاستفهام في هذا داخل بمعنى الاستثبات والتشبيه لأصحاب النبي ﷺ الذين قال لهم لا تقولوا راعنا، ويدل على صحة ذلك قوله بعد ذلك ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: 107] فأتى بخطاب الجماعة»[45].

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لغرض الإنكار التوبيخي. كما في قوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [سورة يونس، الآية: 2].

قال مكي: «أكان ألف استفهام معناه التوبيخ والإنكار لتعجبهم من بعث الله رجلاً منهم رسولاً إليهم، والمعنى ليس ذلك بعجب فقد علمتم أن الرسل من قبلكم كانت من بني آدم ولم تكن ملائكة»[46].

وشبيه بالآية السابقة الاستفهام الوارد في قوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [سورة الناوزعات، الآية: 27].

يقول مكي مبرزاً الغرض البلاغي لهذا الاستفهام «هذا تعزير وتوبيخ للمكذبين بالبعث القائلين ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [سورة النازعات، الآيتان: 10 ـ 11][47] ويستفاد من تفسير هذه الآية أمران:

---

(43) المعنى الحقيقي للاستفهام هو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار ـ الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ 3/ 234.

(44) تفسير الهداية في (ق217) ص61.

(45) تفسير الطبري 1/ 383.

(46) تفسير الهداية خ(ق58) ص1.

(47) تفسير الهداية خ(ق218) ص272.

أولهما اعتماد مكي في تفسيره على آيات القرآن كما مر بنا في كثير من الأمثلة السابقة، فهو من الذين يفسرون القرآن بالقرآن، فكثير من آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً والأمر الآخر قوله بالوحدة المعنوية بين آيات السورة الواحدة، فقد ربط الآية السابعة والعشرين بالآية العاشرة من سورة النازعات.

وقد يتشابه الاستفهام بين الآيات مع اختلاف حرف الاستفهام كما في قوله تعالى يحكي قصة فرعون مع موسى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 23] فينقل ابن عطية عن مكي قوله «كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بما وقد ورد له استفهام بمن[48] في موضع آخر، ويشبه أنها مواطن»[49] وقد فصل الزمخشري القول في هذا السؤال فقال: «هذا السؤال لا يخلو إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرف أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء»[50] ويبرز مكي الفرق بين الاستفهام والتسوية عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 6]. قال: «ومعنى لفظ الاستفهام في أأنذرتهم التسوية، وهو في المعنى خبر ولكن التسوية تجري في اللفظ مجرى لفظ الاستفهام والمعنى على الخبر، وإنما صار لفظ التسوية مثل لفظ الاستفهام للمضارعة التي بينهما وذلك أنك إذا قلت: قد علمت أزيد في الدار أم عمر فقد سويت علم المخاطب فيهما فلا يدري أيهما في الدار مع علمه أن أحدهما في الدار ولا يدريه بعينه فهذا تسوية، وتقول في الاستفهام أزيد في الدار أم عمر؟ فأنت لا تدري أيهما في الدار وقد استوى علمك في ذلك، وتدري أحدهما في الدار ولا تدري عينه منهما، فقد صار الاستفهام كالتسوية في عواقب الأمور غير أن التسوية إبهام على المخاطب وعلم يقين عند المتكلم، والاستفهام إبهام على المتكلم ويجوز أن يكون المخاطب مثل المتكلم في

(48) من هذه المواطن قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه، الآية: 49].
(49) المحرر الوجيز 12/ 56.
(50) الكشاف 3/ 109.

ذلك، ويجوز أن يكون عنده يقين ما سئل عنه. فاعرف الفرق بينهما»[51].

يقول ابن عطية موضحاً الفرق بين الاستفهام والتسوية «أأنذرتهم أم لم تنذرهم» لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام... وكل استفهام تسوية، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً»[52].

المجاز:

يعد مكي بن أبي طالب من العلماء القائلين بوجود المجاز في القرآن الكريم، وهو يذكر ذلك صراحة وبالنص حين تعرضه لتفسير قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 16].

فيرى أن هؤلاء الذين تقدمت صفتهم هم الذين باعوا الهدى بالضلالة؛ لأنهم لما مالوا إلى الضلالة وتركوا الهدى كانوا بمنزلة من باع شيئاً بشيء فوصفوا بذلك، ثم قال «وأضاف الربح إلى التجارة لأن المعنى مفهوم، وهو من اتساع كلام العرب ومجازه، وهو كثير في القرآن»[53].

ويوضح هذا المفهوم أكثر فيبيّن أن المجاز من كلام العرب والقرآن نزل بكلامهم، ويلقي باللائمة على المنكرين له فيقول: «فلا ينكر أن يأتي القرآن مما هو في كلام العرب معروف مشهور إلا من عدم حسه وفارق فطنته، ومثله قولهم: نهارك صائم وليلك قائم، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة سبأ، الآية: 33] وهو كثير في الكلام والقرآن»[54].

ففي المثال والآية يؤصل مكي فكرة المجاز العقلي، وأنها من الأنواع المجازية التي اشتمل عليها القرآن.

---

(51) تفسير الهداية خ(ق217) ص16.

(52) المحرر الوجيز 1/107.

(53) تفسير الهداية خ10739 ـ 1/16و.

(54) نفسه 1/16و.

ويتحدث مكي بأسلوب المتمكن من لغة العرب عن الإشكال الذي أورده بعض اللغويين حول قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [سورة النمل، الآية: 17] وهو أن الوثن غير عاقل وعبر عنه القرآن بمن التي للعاقل، فيقول: «وإنما ذلك لأن العرب إذا أخبرت عمن لا يعقل بفعل من يعقل أجرت لفظه كلفظ من يعقل، فلما أنزلوا الأوثان في العبادة لها منزلة من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل، ومنها قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾ [سورة النور، الآية: 45]. فأتى بمن لمن أخبر عنها بالمشي كما أخبر عمن يعقل، وكذا تفعل العرب إذا خلطت من يعقل بمن لا يعقل غلبت من يعقل»[55].

فهو يتكلم في المجاز حيث أنزل من لا يعقل منزلة من يعقل بأن أسند إليه فعل العقلاء فهو من المجاز العقلي، ولم يسمه مكي باسمه لأنه لم يبرز اصطلاحاً عند الدارسين في عصره، وإن كان معروفاً استعمالاً في كلام العرب الفصيح.

ويلاحظ أن مكي بن أبي طالب يستعمل مصطلح الاتساع ويعني به المجاز؛ لأن اللفظ اتسعت دلالته فجاوزت المعنى الذي وضعت له في الأصل الحقيقي بحيث دلت على معنى جديد زيادة في الإيضاح والتصوير.

وقد تأثر ابن عطية بمكي وسابقيه فكان كثيراً ما يذكر أن اللفظ ورد هكذا اتساعاً ومجازاً كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [سورة يوسف، الآية: 48]. حيث قال: «أسند الأكل إلى السنين اتساعاً من حيث يؤكل فيها»[56] ومن مواضع المجاز العقلي عند مكي قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [سورة النازعات، الآية: 29] قال: «وأظلم ليلها أي ليل السماء فأضاف الليل إلى السماء لأنه يأتي بغروب الشمس ويذهب بطلوعها والشمس في السماء كما قال نجوم الليل فأضاف النجوم إلى الليل إذْ كان فيه طلوعها وغروبها»[57] وعن

---

(55) تفسير الهداية خ(ق58) ص181 ـ 182.

(56) المحرر الوجيز 9/ 314.

(57) تفسير الهداية (ق218) ص273.

المعنى نفسه عبر الزمخشري بأسلوب متميز حيث قال: «وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المتّقِدُ في جوها»[58].

الصور البيانية:

ويظهر مكي جمال التصوير البياني في قوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [سورة الأنعام، الآية: 125].

فيقول «المعنى أن الله وصف صدر الكافر بشدة الضيق عن وصول الموعظة إليه ودخول الإيمان فيه فشبهه في امتناع وصول المواعظ إليه بالحرجة وهي الشجرة التي لا يوصل إليها لرعي ولا لغيره»[59].

فهو يستعين بالآثار واللغة في إبراز هذه الصورة البيانية التي يقول بأنها تشبيه.

أما ابن عطية فقد صرح في تفسير هذه الآية بأنها استعارة فقال: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام»[60].

والحرجة هو ما التف من الشجر، وقد اختلف في معناها عند عمر بن الخطاب فسأل ابن الخطاب رجلاً من كنانة راعياً عن معنى هذه الكلمة، فأجاب بأنها الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير[61] ويتعرض مكي للتشبيه الوارد في قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [سورة البقرة، الآية: 17].

فيقول: «مثل هؤلاء المنافقين في حقنهم دماءهم بما أظهروا من الإيمان وسرهم على غير ذلك كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بضياء ما حولهم... وهو ما يجدونه يوم القيامة من عدم نورهم لأنهم لا ينتفعون بما أظهروا من الإيمان»[62].

---

(58) الكشاف 4/ 214.

(59) الكشف عن وجوه القراءات 1/ 451.

(60) المحرر الوجيز 6/ 145.

(61) تفسير الطبري 8/ 22.

(62) تفسير الهداية خ10739 1/ 16و.

ويشير إلى تشبيه التمثيل في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [سورة البقرة، الآية: 264] يقول «مثل الله المنافقين وأعمالهم بالحجر الأملس عليه تراب وأصابه مطر وابل فتركه لا شيء عليه»[63].

ويشير مكي من طرف إلى التعريض وهو في اللغة خلاف التصريح ومنه المعاريض في الكلام وهي اللفظة التي استعملها مكي، ويسوق مثالاً للتعريض في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القلم، الآية: 7].

فيقول: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن حاد عن طريق الحق وهو أعلم بمن اهتدى فاتبع الحق وهذا من معاريض الكلام، والمعنى إن ربك أعلم بك وأنك المهتدي وأن قومك الضالون، وهذا مثل قوله ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ، الآية: 24][64].

المشاكلة:

ويتعرض مكي في تفسيره لنوع من أنواع المحسنات البديعية وهي المشاكلة اللفظية، وهي ذكر الشيء بغير اسمه لوقوعه في صحبته[65].

ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: 14، 15].

«معناه يجازيهم على قولهم، والعرب تسمي جزاء الذنب باسمه، قال تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى، الآية: 40]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 194]، فالأول من هذا استهزاء وسيئة وعدوان، والثاني جزاء عليه فسمي باسمه اتساعاً لأن المعنى قد علم»[66].

---

(63) تفسير الهداية خ10739 ـ 1/ 121ظ.

(64) تفسير الهداية خ(ق218) ص219.

(65) جواهر البلاغة ص375.

(66) تفسير الهداية خ10739 ـ 1/ 15ظ.

وتعرض ابن عطية عند تفسيره الآية السابقة لتكرار لفظ الاستهزاء، فقال «قال جمهور العلماء هي تسمية العقوبة باسم الذنب، والعرب تستعمل ذلك كثيراً»[67]، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[68]

فابن عطية يتأثر بمكي في باب المشاكلة كما تأثر به في مواطن أخرى.

وشبيه بالآية السابقة قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق، الآيتان: 15، 16] قال مكي «هؤلاء المكذبون بالله ورسوله يمكرون مكراً وأمكر مكراً أي أجازيهم على مكرهم فسمى الجزاء مكراً لأن جزاء المكر يسمى باسم ما هو مجازاة عنه وإن لم يكن مثله»[69].

والأولى به أن يعبر بالكيد مجاراة للفظ الآية؛ لأن المكر ذكر بطريق المشاكلة في آية أخرى حيث قال تعالى ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [سورة النمل، الآية: 50]. ولعله فعل ذلك اتباعاً لطريقته في تفسير الآيات بمثيلاتها.

ملامح منهجه البلاغي:

يعد مكي بن أبي طالب من السابقين الذين صنفوا في تفسير القرآن وعلومه المختلفة بالغرب الإسلامي، وكان له دور بارز في إدخال علم القراءات إلى الأندلس بعد شيخه أحمد بن محمد الطلمنكي ت 429هـ الذي يعد أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس، كما أن مكياً من أكثر المفسرين المغاربة تصنيفاً في تفسير القرآن وعلومه حيث بلغت مصنفاته ثمانين مصنفاً لكن أغلبها مفقود، وأهمها تفسيره «الهداية إلى بلوغ النهاية» الذي نوّه به الكثير من العلماء المغاربة أمثال ابن حزم والقاضي عياض والمقري وغيرهم، كما يلاحظ أن مكي خص إعجاز القرآن بتصانيف خاصة ضاعت فيما ضاع من مصنفاته، ولهذا فإن

(67) المحرر الوجيز 1/ 125.

(68) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة ـ انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص132 ـ وهو من البحر الوافر.

(69) تفسير الهداية خ(ق218) ص294.

تفسير مكي قد خلا من الحديث عن الإعجاز، كما أن البلاغة لم تكن كثيرة به، ولعل السبب في ذلك أن أغلب المصطلحات البلاغية لم تنضج في عصره فكان تناوله لها في نطاق محدود، ولم يهملها إهمال غيره من المفسرين بالمأثور، ويمكن القول إن الأسرار البلاغية عنده كانت فيما يخص علم المعاني وعلم البيان، أما البديع فلم يتطرق إليه وذلك لعدم ظهوره فناً مدوناً في عصره.

وقد أولى معاني الحروف اهتماماً بالغاً، ولعل سر عنايته بها يرجع إلى اتجاهه اللغوي في التفسير وتوجيه القراءات، وقد أبدى اهتماماً ملحوظاً باللغة وجعلها من الركائز الأساسية التي بنى عليها تفسيره، واستعان بها على استجلاء مظاهر الإعجاز في الأسلوب القرآني.

ومن محاسن منهج مكي في تناول المعاني القرآنية تأصيله للنقد التفسيري فهو لا يعرض الأقوال ولا يجمع المسائل من غير نظر وتمحيص، بل يعمل فكره فيما يعرض من مأثور مروي وفيما ينقل من لغة العرب، مرجحاً تارة ورادا لبعض الآراء تارة أخرى، وذلك ثمرة من ثمرات الحوار في مجالس الدرس بين الشيخ وتلاميذه وهو من خصائص مدارس الغرب الإسلامي التي كان مكي من روادها.